المحور السادس

مستقبل اللغة العربية
ورهانات العصر

مستقبل اللغة العربية
و رهاناتها في ظل العولمة

د. أبو عبد الله غلام الله

وزير الشؤون الدينية والأوقاف –الجزائر–

خطة البحث :

- ظاهرة العولمة و طابع الشمول و التعقيد .
- مخاطر العولمة في مجال اللغة جزء من مخاطر العولمة في مجال تذويب الخصوصيات الحضارية

.

الخصائص الذاتية للغة العربية و مؤهلاتها .

مزاعم أعدائها و الرد عليها .

الوضع اللغوي في البلاد العربية عموما و الجزائر خصوصا .

أسلوب المواجهة .

الخلاصة

لاشك أن الحديث عن اللغة العربية و رهانات المستقبل في ظل العولمة وضغوطها يقتضي قبل ذلك الإشارة إلى ما يكتنف هذه الظاهرة نفسها من غموض وتعقيد، بالرغم من أنها قد أخذت من الاهتمام في عشرية واحدة تقريبا ما لم يحظ به النصف الأخير كله من القرن العشرين ؛ و هذا الغموض هو الذي جعل أبحاث المفكرين والخبراء الباحثين في نشأة هذه الظاهرة، ظاهرة العولمة، و تطورها ورصد مجالات تأثيرها ويختلف، ويختلف تبعا لذلك تقييمهم لها و مواقفهم منها ! .

ومهما يكن من أمر هذا الغموض وهذا التعقيد ؛ فإن هناك نوعا من الإجماع على أن مجالات الاقتصاد والسياسة والثقافة بصفة عامة ومطلقة هي الآفاق الرحبة التي تمتد فيها العولمة وتبرز فيها آثارها كنتيجة لهذا الامتداد، في عملية مركبة ومتشابكة ؛ فسواد القيم الليبرالية في الاقتصاد يكمله سواد النظام الديموقراطي الغربي في السياسة، وتحقق التجانس الثقافي في العالم بسواد قيم الثقافة الغربية القائمة على تمجيد العقل وتقديس حرية الإنسان المطلقة .

فالعولمة هي إرهاص عنيف لنهاية الخصوصيات من خلال وسائل تكنولوجية وانتشار ثقافة ذات مرجعية تتمثل في الدولة الأقوى مما يجعل ثقافة العولمة عملية تقويض للثقافة الوطنية(1).

(1) يحي راضي – العولمة الثقافية – مجلة الواحة عدد 16 – 2000 – ص 258 .

وهذا ما يعبر عنه عابد الجابري صراحة عندما يقول: «إن العولمة هي توسيع النموذج الأمريكي وفسح المجال له ليشمل العالم كله اقتصاديا وأيديولوجيا، وإذا كان الاستعمار هو أسمى مراحل الرأسمالية التقليدية التي أفرزتها الثورة الصناعية في أوروبا فإن العولمة اليوم تعني ما كان يعنيه الاستعمار بالأمس، فهي أعلى مراحل الرأسمالية الجديدة التي أفرزتها ثورة المعلومات وما يرافقها في مجال الاقتصاد و الإعلام» (1).

فانطلاقا من هذه الحقائق كلها نستطيع أن نقول إن هناك مستويين أو بعدين في التعامل مع العولمة و رصد ضغوطها في مجال من المجالات، كمجال اللغة الذي يعنينا هنا؛ كما أنه ينبغي الفصل بوعي بين هذين البعدين أو المستويين، فهناك مستوى يعكس التطور الطبيعي لهذه الظاهرة و هذا التطور من شأنه أن يؤثر في كافة مجتمعات العالم، مع الاختلاف بطبيعة الحال في درجة التأثير و مجاله تبعا للخصائص المميزة لهذه المجتمعات حضاريا و ثقافيا وسياسيا واقتصاديا .

وهناك المستوى الثاني وهو الجانب الموجه في ظاهرة العولمة، أي الجانب الذي يخضع للتخطيط، بمعنى توظيف ضغوط العولمة وتحدياتها لتحقيق أهداف محددة، سياسية ثقافية وحضارية؛ وهذا المستوى هو الذي يعنينا، نحن المسلمين عموما، ككيان حضاري متميز؛ لأننا نحن المستهدفين من قبل هذه الإرادة المخططة لضرب مقومات شخصيتنا الحضارية، وفي مقدمتها اللغة العربية.

وهنا تبدو الإشارة ضرورية كذلك قبل الدخول في لب موضوع اللغة إلى أن هذه الاستراتيجية الموضوعة لتقويض أو لعولمة مقومات شخصيتنا الحضارية المتميزة عن الغرب، تقوم هي أيضا على جانبين متكاملين؛ جانب تبدو فيه الأهداف المسطرة واضحة ومجال تطبيقها بارز غير خاف لأن هذا الجانب يسعى صراحة إلى إلغاء الخصوصيات المرجعية للآخر، وذلك من خلال التأثير المباشر في مجالات حيوية كالتعليم وحقوق الإنسان عموما وحقوق المرأة والطفل بشكل خاص وكذا المجال السياسي المرتبط بهذه الحقوق ارتباطا وثيقا .

وهناك الجانب الآخر، وهو الأشد خطورة لأن العمل فيه يتم بشكل غير صريح وغير مباشر، والأهداف فيه غير معلنة، وهذا الجانب يمس العقيدة والأخلاق والتاريخ و التراث؛ وبشكل خاص الوعاء الذي يحفظ ذلك كله، أي اللغة؛ لأن القصد هنا هو تجريد تلك المجالات جميعها من حرمتها وقدسيتها للحيلولة دون عطائها وتأثيرها، فتهتز بذلك كله المرجعية الدينية والحضارية، مما يسهل امتداد العولمة.

فهناك إذن حقيقة كبيرة ينبغي استحضارها، أو قاعدة عامة هي أن العولمة وقوانين تأثيراتها تشبه القوانين الطبيعية، فحيثما كان هناك ضغط مرتفع لابد أن يؤثر في المناطق التي يكون فيها

(1) قضايا في الفكر المعاصر – محمد عابد الجابري بيروت 1997 من 137 .

الضغط منخفضا؛ بمعنى، أن المجتمعات التي تحقق مستوى عاليا في الإنتاج والإبداع مع امتلاك وسائل التبليغ والتوزيع من الطبيعي أن تؤثر في المجتمعات التي تعاني فراغا في ذلك كله، لأنها لا تنتج و لا تبدع، وهي في حاجة إلى استهلاك ما عند الغير، إما عن وعي وعن حاجة ماسة حقيقية أو عن مجرد استلاب و انبهار!.

فالعولمة تحدث الفراغ، ثم تعمل من أجل ملئه بما يخدم أهدافها؛ وبالأساليب التي تناسب إستراتيجيتها، ومن ذلك حمل الآخر على الشعور بالنقص والضعف و دفعه إلى تجريح الذات وفقدان الثقة، والانبهار بما عند الغير والرغبة في التشبه به.

وإذن فإن مقاومة هذا الفراغ يبدأ باستعادة الثقة في النفس والإيمان بأن هذا الضعف القائم، ليس قصورا ذاتيا وإنما هو عارض ظرفي وطارئ زائل إذا ما توافرت العزيمة القوية والهمة العالية بمعنى أن الثقة في النفس قد تحول هذا الضعف إلى حافز وعامل من عوامل القوة، كما يرى ذلك المؤرخ الإنجليزي أرنو لد توينبي.

وإذن فإن هناك واقعا جاثما بثقله و ضغوطه، فارضا منطقه الذي لا مناص من أخذه بعين الاعتبار، فالتحمس الملتهب وحده لا يكفي والعاطفة الجياشة مهما تكن صادقة كذلك لا تجدي، بل لا بد من الوعي بالأولويات التي يمليها هذا الواقع الذي يتطلب علاجه تفكيرا وتخطيطا ووقتا وصبرا ومثابرة و تعاونا جادا ووحدة رؤية و التزاما، ويتطلب قبل ذلك كله إيمانا؛ و ثقة في النفس، ولكن الثقة التي تحيي الإرادة وتبعث الأمل وتدفع إلى الحركة والعمل، لا الثقة التي تنفخ في الغرور وتضخيم الذات دون العمل من أجل تحقيقها.

فلا يكفي هنا مثلا أن نردد بأننا واعون بطبيعة العصر الذي يفرض علينا التفتح على الغير و التبادل والتفاعل معه إلى حد الأخذ بقوانينه والاستجابة لعاداته؛ بل لا بد أن نواجه بوعي وثقة واقعنا وأنفسنا ونسأل بشجاعة ومسؤولية، ماذا نقدم نحن لهذا الآخر ؟ !.

ماذا أقدم له بلغتي مثلما يقدم هو لي بلغته؟ !لأنني أعترف أنا اليوم أنني أجد في لغة الآخر ما احتاجه من أجل النهوض بواقعي في مختلف مجالات الإبداع العلمي والإنتاج المعرفي، فماذا يمكن أن يجده هذا الآخر في لغتي أنا، مما قد يحتاجونه في حياتهم وسعيهم المتزايد إلى التطور والرقي والتقدم ؟! .

فعندما نتحدث إذن عن مستقبل اللغة العربية ومكانتها بين لغات العالم ومزاعم المخططين من أعدائها لتقويضها، ينبغي أن يكون حديثا متكاملا بمعنى أن يشمل الدعوات المغرضة الخارجية المنسوبة لضغوط العولمة ولمخططات أعدائها، و تشمل في الوقت نفسه تقصير أهلها وسلبيات الواقع الذي تعانيه.

إن الحقيقة الكبرى المسلم بها هي أن اللغة العربية مرشحة للسواد في العالم، لارتباطها بالعقيدة الإسلامية من جهة ولخصائصها الذاتية من جهة ثانية؛ هذا بصفة عامة .

ولأنها كذلك أصبحت في نظر من ابتدعوا الإسلام وفوبيا خطرا على الغرب وعلى حضارة الغرب، و بتوضيح أكثر نقول إن منطق العولمة الممنهجة والمسيرة يقول من تميز عنا حضاريا و ثقافيا ولغويا كان خطرا علينا، و لما كان الكيان الإسلامي الأكثر تميزا عن الغرب وحضارات الغرب أصبح هو العائق الأكبر أمام أهداف العولمة والمستهدف بالدرجة الأولى هي اللغة العربية باعتبارها لغة هذا الدين، والآن إذا ما جئنا لنترصد مختلف الوسائل والأساليب والمزاعم والتهم التي يروج لها أعداء هذه اللغة فإننا نجدها على قسمين، قسم يركز عليها هي كلغة؛ من حيث طبيعتها وخصائصها ومؤهلاتها الذاتية وقسم يركز على أهلها الناطقين بها .

ولعل المتتبع لهذا الموضوع يلحظ من دون شك وباعتزاز وارتياح الوعي المتنامي بهذه المخططات الرامية إلى ضرب اللغة العربية، ودحض حججها الواهية علميا، بفضل ما يعقد من ملتقيات علمية متخصصة، عربيا ودوليا، وما وضع في هذا المجال من بحوث جامعية ودراسات أكاديمية، والتي حصرت هذه المزاعم بصفة عامة في النقاط الآتية؛ أن اللغة العربية فقيرة المصطلحات العلمية مما يجعلها غير قادرة على مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي السريع، وأنها لغة تعاني من تضخم في المفردات والمترادفات كتعويض عن الفقر العلمي التي تعانيه وكذا صعوبة قواعد هذه اللغة لتعقد النحو العربي أصلا، واستعصاء شكل هذه اللغة، أي حروفها عن الطباعة مما يحد من انتشارها وتطورها؛ مما يشكك في قدرتها على أن تكون هي لغـة الثقافـة المشتركة للمجتمع العربي والإسلامي، على اختلاف اللهجات المحلية، على اعتبار أن المسلمين جماعة لغوية واحدة، كما يقول علماء اللغة، وهي أكبر رابطة تستطيع أن تضع كيانا حضاريا متوحدًا متماسكا قويا ومتميزا .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى ارتباط العربية بالإسلام هو الذي جعلها تتعرض في تاريخها الطويل للعداء نفسه الذي واجهه الإسلام في مختلف مراحل تطوره، فأعداء اللغة العربية، على اختلاف أساليب تهجمهم كثيرون، لم يكد يخلو منهم عصر أو جيل، ولم يخفف من حدة عداوتهم تلك ما يرون ويسمعون من أبناء جلدتهم من المنصفين للإسلام والعربية من تقدير وثناء وإعجاب!.

وإذا كانت مواقف هؤلاء الخصوم، القدامى والجدد على حد سواء، واحدة، فإن الأساليب المنتهجة هي التي تتجدد وتتطور بطبيعة الحال!. فهم إذا كانوا يتفقون على أن اللغة العربية هي أساس كيان الأمة المحمدية فإن مخططاتهم للنيل منها والتهوين من شأنها وصرف أهلها عنها وترغيبهم في غيرها متنوعة وكثيرة .

يقول الباحث المتخصص في هذا المجال، الأستاذ الدكتور سعيد العربي موضحا إدراك الأعداء لهذا الترابط الوثيق بين العقيدة واللغة وسعيهم لهدمه، « . . . لقد أدرك أعداء الإسلام حكمة وجوب قراءة القرآن في الصلاة، بما يعني أن العربية هي لغة المسلمين جميعا، فأرادوا أن يضاهوها بعملهم هذا

الذي أظهروه أخيرا وهو إيجاد لغة عامة للبشر أجمع سموها لغة «الإسبرنتو» يزعمون أنهم يريدون تقريب التفاهم بين الشعوب الإنسانية؛ و لكن من عرف مبادئ هذه اللغة يفهم أن المطلب هو إحياء اللغة اللاتينية التي كانوا يسمونها لغة العلوم، وهي اللغة الدينية المسيحية، و إنما جعلوا عنوانها لغة البشر كي يوجهوا المسلمين كغيرهم إلى الاهتمام بها وبذل العناية فيها، علما منهم أن للغة تأثيرا كبيرا في التغيرات الفردية وانقلابات الجماعات و الأفراد(1).

والملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا، أن هذه الحملات المشككة في قدرة اللغة العربية على البقاء تركز على خصائصها الذاتية كلغة و على مؤهلاتها الذاتية، بينما يقتضي المنطق أن يتوجه النظر إلى أهلها لأن اللغة، أية لغة، إنما تقوى وتزدهر بازدهار أهلها وتضعف بضعفهم ! .

يقول الدكتور إبراهيم السامرائي في حديثه عن علاقة اللغة بأهلها من جهة، وعن قدرة اللغة العربية على التعبير والاستيعاب والتطور الذاتي لما تنطوي عليه من عناصر القوة و الحياة من جهة أخرى: «العربية إحدى اللغات الحية وهذا يقتضينا أن نفهم فنسلم بأنها لغة متطورة تخضع لما تخضع له اللغات الحية عامة ؛ وهي إحدى اللغات السامية، التي اندثرت معالمها وانمحت أصولها، فلم تبق إلا هذه اللغة القديمة؛ ولابد من الاستطراد قليلا فأقول إنها الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت على مر العصور في حين لم تثبت تلك اللغات وقد يقول قائل: إن العبرانية لغة قائمة وأنا أقول إن هذه العبرانية ليست إلا مادة جديدة أعيد بناؤها بصورة قسرية جبرية لتكون لغة مجاميع بشرية هي ليست لغتهم ؛ ولا بدلي من أن أدع هذا الاستطراد الموجز فأعود إلى العربية لأقرر أنها لغة حية و أنها كانت خير وسيلة للإعراب عن حضارات مزدهرة، و آية ذلك أن العلم القديم بفكره وفلسفته وسائر ألوانه لم يكن له من وسيلة غير هذه العربية السمحة . ولا أراني منساقا انسياقا عاطفيا حين أقرر أنها كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي».

فالحقيقة الكبرى التي نؤمن بها نحن المسلمين جميعا، والتي تظل فوق أية مراجعة أو جدال، أن الله سبحانه قد تكفل بحفظ كتابة الذي أنزله بهذه اللغة؛ فالحرف العربي محفوظ ما في ذلك شك إلى يوم الدين؛ والمسألة إذن لا تتعلق بالعربية كلغة وإنما تتعلق بأهلها المسلمين، عربا وعجما، فهم المدعوون إلى أن يجعلوها – مثلما كانت بالأمس أيام مجدها وريادتها – لغة العلم والمعرفة في العالم .

يقول في هذا المجال أيضًا الدكتور على لغزيري في بحث قدمه في ندوة الرباط حول «اللغة العربية إلى أين ؟!» في نوفمبر 2002: «والمثير للغرابة والعجب أن الحملات توجه إلى اللغة في ذاتها لا إلى أهلها مع أن القصور الذاتي الذي تحمله وترمى به ليس راجعا إليها بقدر ما هو كامن في أبنائها، لاسيما والإجماع

(1) اللغة العربية – منشورات وزارة الثقافة السورية – 2004 – القسم الأول – ص 263.

حاصل عند علماء الغرب أنفسهم على أن العربية من أكمل اللغات، ويكفي الإطلاع على مجموعة من معاجمهم كمعجم لا روس أو معجم لالاند للوقوف على هذه الشهادات ».

وقبل الدكتور لغزيري وأمثاله من العلماء الباحثين المختصين والغيورين على هذه اللغة، نجد جيلا آخر، حمل هذا الهم نفسه وعانى من هذه الظاهرة نفسها، وعبر عن هذه الحقيقة ذاتها بأسلوب مكثف، أمثال مصطفى صادق الرافعي عندما تحدث عن قدرة اللغة العربية على مواكبة وتيرة التطور العلمي والمعرفي ومستجدات المستقبل، فقد قال: «إن تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربية في هذه اللغة لن يكون إلا على السابقة التي سلفت من تأثير علوم الفرس واليونان وغيرهم ولا ضرر منه على اللغة العربية فهي قوية متينة تحمل ذلك وتستلحقه وتأتينا به مستعربا وإن نبت في لندن وباريس وبرلين وغيرها كما جاءت بمثله من قبل، ومادام فينا حفاظ ونزعة صحيحة فلا نخشى على لغتنا ضرورة من الضرورات لأن في كل تاريخ حي ممرا لمثل هذه الضرورة تبدأ فيه من جهة وتنتهي فيه من جهة »(1).

فقد أكد هذه الحقيقة مجمع اللغة العربية في دورته الثانية والأربعين المنعقدة بالقاهرة سنة 1976 من خلال البحوث المستفيضة التي قدمت فيه، ومن ذلك مثلا ما جاء في مداخلة الدكتور إبراهيم مذكور حول هذه المسألة، إذ قال: « تساءل الناس منذ ربع قرن أو يزيد عن موقف العربية من اللغات الكبرى فعدها قوم واحدة منها وأنكر ذلك عليها أقوام آخرون، وسبق أن أثبتنا أنها كانت في الماضي ولعدة قرون اللغة الوحيدة للعلم والفلسفة في العالم بأسره، من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر الميلادي ثم انضمت إليها اللاتينية فأخذت منها واتجهت عن طريقها إلى كنوز الحضارات القديمة، وبرهنا على أنها قادرة على أن تستعيد مجدها، وليس من طبيعتها ما يعوق مطلقا دون أن تؤدي كل متطلبات العلم و الحضارة ؛ ومنذ النصف الأخير من القرن الماضي أخذت تجدد نشاطها و تتدارك ما فاتها، وحظيت أخيرا بإنتاج وفير ومتنوع، وأقامت العربية الدليل على حيويتها وعلى قدرتها على البقاء؛ ولم تجد الهيئات الدولية بدا من أن تعترف بها وتقدرها حق قدرها! » .

فحقيقة أن اللغة العربية ستتبوأ المكانة اللائقة بها في المستقبل لا ينكرها إلا مكابر معاند، لأن هذه الحقيقة تستند – كما قلنا إلى أساسيين اثنين، كونها لغة الدين الخاتم الذي سيظهره الله على الدين كله؛ وكونها مهيأة ذاتيا لحمل هذه الرسالة الدينية الحضارية الإنسانية العالمية ؛ وهذه الحقيقة، عبر عنها النزهاء المنصفون من مختلف بقاع العالم، غربا وشرقا، سواء من العلماء المختصين، أم من المفكرين المنظرين أم من الزعماء المستنيرين والمتبصرين ؛ يقول الدكتور أحمد إسماعيلوفيتش، وهو شخصية علمية في يوغوسلافيا «إن الحضارة الإسلامية العربية في يوغوسلافيا قديمة، وهي ليست غربية ولا جديدة على أوروبا

(1) اللغة العربية آراء و مناقشات – منشورات وزارة الثقافة – دمشق – ص 171.

فقبل ضياع الأندلس كانت أوروبا كلها تتجه للعرب وحضارتها وقد أثرت هذه الحضارة في النواحي الفكرية والمادية في أوروبا حتى بعد خروج العرب من الأندلس، وعندما زار الرئيس تيتو القاهرة وكنت حينذاك مديرا للمدرسة اليوغوسلافية في القاهرة وسألني عما إذا كان أبناؤنا يدرسون اللغة العربية فأجبته بالنفي؛ فقال تيتو: لابد من أن تكون ضمن البرنامج لأنني أريد أن يتعلم أبناؤنا اللغة العربية لأنها لغة المستقبل.» (1) !

وأعيد وأشير إذن إلى أن مستقبل اللغة العربية ومؤهلاتها للسواد وللانتشار في العالم قد أخذ حظا وافرا من الدراسة والبحث ،ليس من قبل الباحثين العرب فحسب ،بل من قبل المستشرقين المختصين والدارسين المهتمين والنزهاء المنصفين من الغربيين أنفسهم.

لكن الجانب الذي لم يأخذ بعد قدره – الكافي من الاهتمام، بالرغم من كونه هو الأهم، وهو أولوية الأولويات إنما هو التشريح الشامل لوضع هذه اللغة في واقع المجتمعات العربية والإسلامية، للوقوف على مختلف التناقضات والمفارقات التي يفرزها هذا الواقع بمختلف أبعاده المتفاوتة من مجتمع لآخر، بحسب واقع كل مجتمع وبحسب الخلفية التاريخية لهذا الواقع .

وهذا الجانب العملي، أو الواقعي إن صح هذا التعبير ينقسم إلى قسمين: قسم مشترك عام نجده عند جميع المجتمعات العربية، وقسم خاص، هو وضع اللغة العربية داخل كل مجتمع، عربي، وما يتميز به هذا الوضع الخاص من سلبيات تساعد على انتشار ضغوط العولمة وتخدم من حيث تدري أو لا تدري أهدافها وتسهم في نجاح مخططاتها؛ وللحديث عن هذا القسم بالذات سنأخذ مثالا له الجزائر.

فبالنسبة لما هو مشترك عام بين المجتمعات العربية نستطيع أن نمثل له بواقع الترجمة، باعتبارها ضرورة حضارية، يمكن من خلال التعرف على وضعيتها في مجتمع عربي ما أن ندرك مكانة اللغة العربية في هذا المجتمع!.

إن الترجمة كما هو معروف نشاط إنساني إبداعي نوعي؛ فهي ليست مجرد تقنية لغوية بل هي عملية مترابطة متكاملة تحمل جميع العناصر المكونة للمجتمعين المترجم عنهما ولهما وكذا طبيعة التفاعل الحضاري القائم بينهما؛ فهي بهذا المفهوم عامل أساسي من عوامل الاقتباس و التأثر الإيجابي بما عند الغير؛ و لا داعي هنا للإسهاب في البعد التاريخي لهذه المسألة، لأن جميع العلماء الإصلاحيين النهضويين المستبصرين كان موقفهم من قضية الترجمة واحدا؛ نأخذ على سبيل المثال مؤلفات الطهطاوي التي تعتبر خير مثال لتأكيد ضرورة الأخذ عن الغرب، كما يظهر ذلك في تخليص الإبريز في تلخيص باريس؛ كما نجد الموقف نفسه عند المصلح التونسي المعروف الوزير خير الدين في مؤلفه الشهير «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» فقد دعا هذا المصلح بإلحاح إلى الاقتباس من أوروبا وخاصة «مستحدثاتهم المتعلقة بسياستي الاقتصاد والتنظيم» .

(1) مجمع اللغة العربية – الدورة 43 بالقاهرة 1978 – ص 06 .

فمن المعروف لدى الباحثين المهتمين أن الترجمة في القرن التاسع عشر كانت اختيارا قائما على الوعي بمنطق الضرورة وفقه الأولويات، ويمكن القول إن التجارب الرائدة في ذلك لبنان ومصر بصفة خاصة، ثم ما وقع من فتور بعد ذلك بسبب الظروف المتميزة الخاصة بكل مجتمع، وبصفة أخص في فترات الاحتلال؛ لكن الجهود ظلت مع ذلك تبذل، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية وما أصبحت تقوم به بعض الهيئات مثل جامعة الدول العربية، وكذا المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وظهور مؤسسات تتمخض لهذه المهمة الحضارية مثل مركز التعريب والترجمة في سوريا والمعهد العالي للترجمة في الجزائر .

وباختصار نقول عن هذا الجانب التاريخي لحركة الترجمة في البلاد العربية إنه في حاجة إلى مزيد من عناية الباحثين ؛ لأن الجهود المبذولة في هذا المجال ما يزال يغلب عليها الطابع الإحصائي الذي ينصب أكثر على معرفة عدد الكتب المترجمة واللغة المترجم منها والمواضيع المترجمة وكذا الفئات المستهدفة بها وما إلى ذلك !! .

لكن قل أن نجد دراسات مستفيضة متخصصة تنطلق من الواقع المعيش وتوظف هذه التجارب في إطارها التاريخي لفهم هذا الواقع اليوم بكل أبعاده وتناقضاته، من أجل النهوض به وتلبية حاجاته في ظل ضغوط العولمة؛ وانعكاس ذلك كله على وضع اللغة العربية في مختلف مجالات الحياة .

وأكرر هنا وأقول إن ألمهم ليس هو معرفة التفاوت الملحوظ بين بلد عربي و بلد عربي آخر من حيث الكم، أي من حيث عدد الكتب المترجمة، كما أن المهم كذلك ليس مقارنة حجم ما يترجم في البلاد العربية بحجم ما يترجم في البلاد الأوروبية أو في اليابان أو اليونان أو حتى إسرائيل، بل المهم أو الأهم في كل ذلك إنما هو إبراز و تأكيد مدى الترابط العضوي الموجود بين حركة الترجمة وحركة التأليف؛ فضعف التأليف بالعربية أصلا هو نتيجة منطقية وحتمية لضمور حركة الترجمة التي تفتح الآفاق وتثير التساؤلات وتطرح الإشكاليات فالإطلاع على ما عند الغير يكون بالترجمة، وبعد ذلك فقط تأتي الإضافة، وهذه الإضافة بطبيعة الحال تكون باللغة العربية المترجم إليها، وهذا هو بيت القصيد، إذ القضايا مترابطة، فضعف التأليف معناه تأخر عن الواقع بمفهوم تطور هذا الواقع في بعده العلمي التكنولوجي والثقافي المعرفي وفي بعده الاقتصادي، ومعناه في النهاية تخلف حضاري؛ و أول مجال يظهر فيه هذا التخلف الحضاري هو مجال اللغة، عندما تصبح جامدة محنطة غير متجددة ! .

وإذن فالنهوض باللغة و تحريرها من كافة الضغوط التي تعانيها ليس عملا بسيطا بل هو عمل حضاري مركب متداخل كتداخل مقومات الشخصية الحضارية نفسها .

هذه حقيقة؛ وهناك جانب آخر مرتبط بهذه الحقيقة هي أنه زيادة عن ضعف حركة الترجمة عموما كنشاط حضاري في البلاد العربية، فإننا نجد أن هذا الحجم الضئيل من حيث النوع يركز أكثر على

العلوم الإنسانية؛ وهنا نقول إن العلوم الإنسانية بالرغم من أهميتها، وبالرغم مما لدى العالم الغربي من جديد نافع لنا فيها، فإنها مع ذلك قد تأتي في الدرجة الثانية من الأهمية، باعتبار أن ما نحتاجه نحن في المقام الأول هي العلوم التكنولوجية، فأين فقه الأولويات في مجال الترجمة ؟! .

وأخيرا ؛ نخلص إلى نقطة جوهرية في هذا المجال، تزيد وضع اللغة اضطرابا وتخلفا، وهي أن المجالات التي تنحسر فيها حركة الترجمة هي المجالات نفسها التي يبرز فيها ضعف اللغة العربية وعجزه، أي مجالات العلوم التكنولوجية، وهي نتيجة حتمية ومنطقية كما رأينا ؛ ثم إن هذه الوضعية المزرية باللغة تدفع حتما إلى وضعية أشد منها تأزما وتعقدا ألا وهي اللجوء إلى الحلول الجاهزة السهلة التي تهدئ ألم الجرح وتسكنه إلى حين، و لكنها لا تعالجه نهائيا ؛ وأعني بذلك اللجوء إلى تدريس هذه العلوم التكنولوجية في المستويات العليا باللغات الأجنبية .

وهكذا يصبح ما كان ضروريا مرحليا أمرا قارا واقعا مستمرا، بل يصبح قناعة واختيارا؛ ولا يخفى ما ينتج عن هذا الخيار من إفقار للغة في مضامينها العلمية وما تعانيه من جراء ذلك من ظلم لأن أخطاء أهلها أصبحت تتحملها هي، وكأنها هي القاصرة العاطلة العاجزة المتخلفة !! .

وللخروج بنظرة حكيمة لهذه المسألة ينبغي أن نعود إلى منهج أسلافنا في أوج عطائهم الحضاري وريادتهم في مجال العلم والمعرفة؛ فمن المعروف أنهم بادروا –بثقة ووعي – إلى ترجمة ما عند غيرهم من الأمم وفق ما يمليه منطق الأولويات؛ ولعل أقوى دليل على ذلك أنهم لم يترجموا الأدب اليوناني أو اللاهوت عموما لأن ذلك من الخصوصيات الحضارية المرتبطة بالعقيدة وقد فهموا ذلك جيدا؛ بل فهموا قبل ذلك حقيقة أولية أكبر، هي أن اللغة هي التي تصنع خدامها من العباقرة الذين يخدمونها لأنهم يؤمنون بها؛ فالجرجاني والزمخشري والخليل وغيرهم كثير، ممن أغنوا اللغة العربية بتطوير علومها بالعربية، كانت لهم مع ذلك نظرتهم السليمة الحكيمة الأصيلة إلى ثقافات الأمم الأخرى وإلى علومها المختلفة نظرة قائمة أصلا على الثقة بالنفس، أي الثقة في القدرة على تحويل ما يفيد مما عند الغير إلى ما يغني العربية وليس العكس .

فالرجوع إلى نهج السلف في التعامل مع الغير بما يخدم اللغة لا بما يضعفها معناه أن نستلهم هذا المنهج لعلاج أوضاعنا الحضارية الراهنة المتميزة عن الأوضاع التي عاشوها هم؛ بمعنى أن نجد حلولا لمشكلاتنا الحضارية بالمنهج نفسه الذي وجدوا هم به حلولا لمشكلاتهم الحضارية؛ وهذه مسألة عامة تسري على كل المجتمعات العربية اليوم؛ ونريد أن نأخذ لذلك مثالا خاصا محددا، هو وضعية اللغة العربية في الجزائر، أين هي من رهانات المستقبل وضغوط العولمة ؟ ! .

ولماذا الجزائر كمثال؟ الإجابة، تتمثل في الخلفية التاريخية المتميزة، وحجم رواسب هذا الماضي الموروث عن أطول فترة احتلال عرفها مجتمع عربي إسلامي واستمرار كثير من هذه السلبيات في كبح الجهود من أجل رفع التحديات التي تواجهها العربية في الجزائر في ظل ضغوط العولمة .

وبداية نقول إن وضع اللغة العربية في الجزائر يتسم بقدر كبير من الغموض والتعقيد، وهذا بالرغم من الجهود الحميدة التي بذلها باحثون جادون في هذا المجال يستحقون كل التقدير والثناء؛ فما تزال هناك هالة من التعقيد والغموض تكتنف هذه القضية عموما وذلك في نظرنا يعود إلى أسباب عديدة؛ بعضها يعود إلى طبيعة الباحث نفسه ومنهجه في البحث والتحليل والرصد والتعليل؛ إن هناك مثلا من هؤلاء الباحثين من يخطئ منذ البداية، عندما يدخل على هذه المسألة المعقدة المركبة، أي وضعية اللغة العربية في الجزائر، وهو ينظر إليها أصلا كما يريدها أن تكون، لا كما هي في الواقع، بمعنى أن ينظر إليها في إطار كل العوامل الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية التي ساهمت في صنع هذه الوضعية أو هذا الواقع، بكل مناخه وتضاريسه وتناقضاته ومفارقاته وإفرازاته ؛ وبخاصة من ذلك كله الخلفية التاريخية الشديدة التميز وفعل رواسب تلك الخلفية بعد الاستقلال كما أشرنا .

فهناك إذن جملة من الحقائق ينبغي أن يستحضرها الباحث الدارس لهذه المسألة المعقدة ؛ وكل حقيقة من هذه الحقائق تحتاج وحدها إلى بحث مستقل مفصل نظرا لأهميتها وارتباطها الوثيق بعوامل موضوعية أخرى لا تقل أهمية ! .

فالعاطفة وحدها مهما تكن ملتهبة صادقة وجياشة لا تجدي، إذا غاب الفكر الراشد المنطلق من الواقع ؛ فالحديث عن تجربة الجزائر الغنية في مجال التعريب ومقارنتها باليابان مثلا أو كوريا أو الفيتنام قد يقود إلى مزيد من تجريح الذات؛ لأن وضع هذه المجتمعات مختلف عن وضع المجتمع الجزائري من زوايا عديدة .

فالجزائر كيان تعرضت مقومات شخصيته الحضارية للاهتزاز، طوال قرن ونصف القرن؛ ولعل الضغوط التي عانتها وتعانيها منذ الاستقلال أشد مما عانته في فترة الاحتلال، لأن الأساليب المعتمدة في تلك الفترة أعني فترة الاحتلال هي أساليب مباشرة واضحة من جهة، وكيفية مواجهتها كذلك واضحة لأنها تتلخص في موقف واحد هو الرفض، رفض كل ما يمس هذه المقومات، سواء بالترغيب أم بالترهيب، وكذلك كانت الحال ! . (وهذا ما تُلخصه المقولة الشهيرة لابن باديس « والله لو قال لي الاستعمار قل لا إله إلا الله ما قلتها »؛ فلا ننسى أن الاستعمار الفرنسي كان ذا نزعة صليبية ؛ أراد أن يجعل من الجزائر قطعة من أرض ألغال، مسيحية الدين فرنسية اللغة ! .

ولقد تعاون على ذلك رجال السياسة والجيش ورجال الكنيسة؛ وبرزت هذه النزعة بوضوح في المخطط ألتنصيري الذي وضعه الكاردينال لا فيجري الذي صرح قائلا : « إن إدخال الأهالي إلى الديانة المسيحية واجب مقدس، وإن أول ما يجب فعله معهم هو الحيلولة بينهم وبين القرآن » والذي يهمنا هنا، هو أن صرف هؤلاء الأهالي عن قرآنهم يقتضي صرفهم عن اللغة التي نزل بها .

ومن هنا وضعت مخططات لمحاربة اللغة العربية تضافرت على تنفيذها، الإدارة الاستعمارية والكنسية وخدام السياسة من المؤرخين والمفكرين والأدباء والدارسين، الفرنسيين بطبيعة الحال ومن تأثر بهم وسار على نهجهم من الجزائريين وهذا ما تصدت له جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بدفاعها عن الإسلام والعربية، كما هو معروف في شعارها الوطني «الجزائر وطننا الإسلام ديننا والعربية لغتنا»، وتنوعت – كما لا يخفى على أحد – الأساليب المتعبة للقضاء على هذه اللغة، وكان منها محاولة استغلال تعدد النسيج اللغوي في المجتمع الجزائري لضرب الوحدة اللغوية القائمة على لغة القرآن، لقدكتب الشيخ البشير الإبراهيمي سنة 1948 مقالا نشر في العدد 42 من جريدة البصائر يبصر من خلاله بالنوايا الخفية للاستعمار الذي أراد أن يجعل من الأمازيغية ضرة معادية للعربية يقول فيه: «العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي طويلة الأفنان في المستقبل لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم؛ فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي وضرب بأطنابه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح؛ ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس وتنساغ في الألسن واللهوات وتنساب بين الشفاه والأفواه، يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يتلى وأن الصلوات بها تبدأ وتختم؛ فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها وخالطت الحواس والمشاعر وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا فأصبحت لغة دين ودنيا معا؛ وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته، وعرف البربر عن طريقها ما لم يكونوا يعرفون وسعت إليها حكمة يونان تستنجد بها البيان وتستعديها على الزمان!.

فمن قال إن البربر دخلوا في الإسلام طوعا فقد لزمهم القول بأنهم قبلوا العربية عفوا لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما ومن شهد أن البربرية مازالت قائمة الذات في بعض الجهات فقد شهد للعربية بحسن الجوار وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلط لمحا البربرية في بضع قرن، فإن تسامح ففي قرن !» .

وباختصار نقول إن وضع اللغة العربية في الجزائر خلال عهد الاحتلال قد أخذ حظه من الدراسة والبحث لأن المسألة – كما قلنا – واضحة ليس فيها غموض ولا تعقيد .

لكن الوضع، بالنسبة لهذه اللغة يختلف اختلافا جذريا مع وضعها بعد الاستقلال، وخصوصا في الظرف الحضاري الأخير من القرن العشرين، الذي بدأت تتشكل فيه ملامح عالم جديد بفعل ضغوط العولمة التي جعلت منه قرية إلكترونية صغيرة، لم يعد فيها للبعيد معنى ولا للمجهول غموض، ولا مكان فيها للعزلة والانطواء، بل أصبح التفتح على الغير حتمية يفرضها منطق هذه العولمة فرضا ! .

فزيادة عن الضغوط الخارجية التي تواجهها اللغة العربية، وإلى جانب استمرار تأثير رواسب الماضي الاستعماري المتميز فإن هناك واقعًا جديدًا بمختلف أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية

يشهده المجتمع الجزائري، و ما أفرزه تطور هذا الواقع واقعًا جديدًا من ظواهر زادت وضعية اللغة العربية تعقيدًا (أعني في مستوى الواقع المعيش) لقد أصبح وضعها غريبا لأنه لم يعد مجرد قضية لغة، بل أصبح قضية ثقافة ومنظومة قيم وذهنية وسلوك، بل ومشروع مجتمع مناف لمقومات المجتمع الجزائري الأصيل، هذه المقومات التي بدأت تهتز و تضطرب بقوة في أذهان فئات غير قليلة من المجتمع الجزائري، من ضحايا هذا الاستيلاب اللغوي.

هذه الفئات، تؤمن، وتصرح على ألسنة وأقلام من يمثلها من المثقفين أن اللغة الفرنسية غنيمة حرب، وأنها لغة تفكير وإبداع وحاملة للجديد النافع وناقلة لما عند الغير !! .

ولا يخفى ضعف هذا الموقف وخطأ هذه النظرة وتفاهة هذا المنطق الذي يناقضه الواقع والحقيقة والتاريخ؛ إذ لو كانت الفرنسية في نظر هؤلاء المستميتين في الدفاع عنها والعمل من أجل التمكين لها مجرد لغة، أي وسيلة، وغنيمة حرب كما يحلو لهم أن يرددوا، فلماذا يحاربون اللغة الإنجليزية ويضيقــون عليها، وهــم أدرى النـاس بأنها لغة العلــم والتكنولوجيـا الأولى في العالم ؟ .

الواقع أن الوضعية اللغوية المتميزة التي تشهدها الجزائر للأسباب الموضوعية التاريخية المعروفة قد أفرزت في مستوى المثقفين الجزائريين المتكونين باللغة الفرنسية فئتين متباينتين؛ فئة يمثلها أمثال كاتب ياسين صاحب مقولة الفرنسية غنيمة حرب، وفئة أخرى مقابلة لها يمثلها مالك حداد، ويلخص موقفها من اللغة الفرنسية تعبيره الرائع في إيجازه وكثافته «المنفى» فهو يحس بغربة ذهنية ووجدانية وحضارية داخل اللغة التي تحول بينه و بين التعبير عن هذه الأبعاد المكونة للذات؛ فمالك حداد واع إذن بأنه، هو ومن فرضت عليه مثله هذه اللغة، وحرم من لغته الأصلية، يعيش وضعا شاذا، غريبا، ظرفيا زائلا لأنه غير طبيعي؛ ولذلك عبر عنه بالمنفى ! .

بخلاف الذي يرى في «المنفى اللغوي» أمرًا طبيعيا وصحيا؛ إنه لا يكسب شيئا ولا يغنم شيئا، بل هو إنسان ضائع مستلب، مقطوع الأواصر مع تراث مجتمعه الروحي والثقافي والحضاري .

هذه الفئة من الكتاب والمثقفين المستلبين، تجد في عوامل عديدة ما يجعلها تستأنس بهذا «المنفى» بل وتدافع عنه وتحاجج من يعارض موقفها هذا؛ ومن هذه العوامل بطبيعة الحال تزايد انتشار اللغة الفرنسية في الجزائر في مختلف المجالات الإدارية والثقافية و الفنية والإعلامية .

ولا يخفى على أحد أن فرنسا تشجع ذلك كله وتبذل كل ما في وسعها للإبقاء على هذا الوضع؛ لتظل الجزائر باعتبارها بوابة إفريقيا – امتدادا ثقافيا و حضاريا لها؛ ففرنسا – كما لا يخفى على أحد ليس لها أي امتداد ثقافي حضاري، بعيدا عن الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ؛ فقضية اللغة بالنسبة لها قضية استراتيجية حضارية ومصيرية؛ فليس غريبا إذن أن تهتم وتتابع وضع اللغة في الجزائر بعناية بالغة في جميع المستويات وبخاصة منها مجال التربية والتعليم .

ففي سنة 2000 مثلا، صرح سفير فرنسا في الجزائر وقال إن بلاده «مرتاحة للتعديلات التي عرفتها المنظومة التربوية في الجزائر وخاصة فيما يتعلق بإعادة الاعتبار للغة الفرنسية التي أصبحت تدرس ابتداء من السنة الثانية ابتدائي، وهو الأمر الذي ستدعمه فرنسا و تعمل على تشجيعه ماديا و معنويا، وستسعى لتدعيم مكانة اللغة الفرنسية في الجزائر وذلك بحكم العلاقات التاريخية التي تجمع البلدين».

هذا التوجه، يستغل بطبيعة الحال الوضع اللغوي المضطرب الذي يعيشه المجتمع الجزائري كما قلنا ؛ للعوامل التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي لا تخفى على أحد .

وهذا الوضع مثقل بالمتناقضات التي أفرزتها تلك العوامل جميعا ؛ فاللغة العربية هي اللغة الوطنية و الرسمية بنص الدستور الجزائري في كل صيغة منذ سنة 1963؛ لكن هناك هوة ظلت قائمة تفصل بين ما هو نظري وعما هو معيش مطبق في الواقع؛ أي بين ما نعلن عنه، وما نعمل به .

ففي الواقع نجد أن اللغة الفرنسية في الجزائر تزداد رسوخا وانتشارا على حساب العربية بالرغم من القوانين الصادرة رسميا والقاضية بتعميم استعمالها في كل المجالات إيمانا بأن السيادة لا تكتمل بدون اللغة، لأن اللغة هي الجنسية وهي الشخصية.

ولا شك أن المتتبع لقضية «التعريب» في الجزائر منذ الاستقلال يدرك أن هناك إرادة لترسيخ الوضع الشاذ الذي ورثته عن عهد الاستعمار؛ أي الإبقاء على اللغة الفرنسية لغة الإدارة و الإعلام و الدبلوماسية و التعليم العالي والتكوين؛ مع عناد و إصرا، و إن خالف هذا الوضع التاريخ، والمنطق، و العلم، و الوطنية، و الشرف.

ولا شك كذلك أن هذا المتتبع يقف على الحجج الواهية التي يقدمها أنصار هذا التوجه؛ و التي تتجدد أشكالها بتجدد الظروف و المناسبات، و لكنها تبقى في جوهرها ودوافعها واحدة؛ هي تكريس التبعية الثقافية الحضارية لفرنسا بالتمكين للغتها؛ والتذرع في الظاهر بأن تعميم العربية تنجر عنه مخاطر شتى، في مقدمتها عرقلة النهوض والتقدم وتعريض الوحدة الوطنية للتصدع، والحكم على الأجيال الصاعدة بالجمود والانغلاق وما إلى ذلك من الذرائع التي لا وزن لها ولا سند إلا في أذهان أصحابها؛ لأن صاحب المنطق السليم لا يناقش ولا يجادل في حقيقة مسلمة هي أن سيادة أمة واستقلالها لا يكون لهما معنى إذا لم تتحرر ولم تستقل «لغويا» بعد أن تتحرر سياسيا !.

ولقد تم دحض هذه الحجج الواهية علميا و موضوعيا، فوضعت في ذلك بحوث ودراسات، ونظمت ملتقيات و ألفت كتب من قبل متخصصين جزائريين وطنيين؛ ولنا في هذا المجال رصيد مشرف من الناحية الكمية النظرية، ولكن ذلك كله لم يفد في الواقع كثيرا؛ حيث ما فتئ يؤكد هذا الواقع بأن

اللغة العربية تنحسر مواقعها الاستراتيجية في مختلف المجالات الحساسة من حياتنا الوطنية، بينما يزداد حضور اللغة الفرنسية قوة وكثافة.

فالتذرع بالحرص على نهضة الجزائر و تقدمها في التمسك بالفرنسية يفنده واقع المجتمعات التي عاشت كلها تجربة الصمود والكفاح والتحرر ثم النهوض الحضاري والتقدم ؛ و لعل أقرب مثال لذلك ألمانيا و إسبانيا و اليابان وكوريا فهذه البلدان وغيرها إنما نهضت بلغاتها التي تعتز بها والتي تعبر عن شخصيتها فلم تتبن الإنجليزية مثلا، وتتذرع في تبنيها باستعجال امتلاك التكنولوجية كما يزعم بعضنا نحن بالدعوة إلى التمسك بالفرنسية ثم، لو كانت نهضات الشعوب تتم بمجرد استيراد « لغة » أجنبية متقدمة لوجدنا البلدان الإفريقية والآسيوية التي تبنت الفرنسية والإنجليزية قد خرجت من التخلف والتحقت بفرنسا وإنجلترا ؛ وما لنا نذهب بعيدا وخير مثال لهذه الحقيقة هي الجزائر نفسها ؛ فمن المعروف أن الفرنسية هي التي سيرت الإدارة والاقتصاد والصناعة منذ الاستقلال؛ فما هي مكانة الجزائر في هذه المجالات اليوم؟ !.

الحقيقة التي لا ينكرها إلا متعصب أعمى هي أن تقدم الأمم يكون بلغاتهاوعبقرية أبنائها الذين يبدعون بهذه اللغة ؛ لأن اللغة هي روح الأمة وهي ذاكرتها؛ ولا يمكن لكيان أن يحيا وينهض ويتقدم بذاكرة غيره .

فاللغة العربية تعاني من هذا التناقض القائم بين الادعاء والتطبيق؛ فنظريا ورسميا هي اللغة الوطنية والرسمية، ولكن الواقع يؤكد غير ذلك؛ فالجزائر يراد لها أن تظل رهينة حضارية، مسجونة في لغة أجنبية واحدة هي اللغة الفرنسية محرومة من التمكين للغتها الوطنية وهي في الوقت نفسه غل يشل الجزائر عن الحركة في عصر التفتح والتطور لأنها تظل تدور فقط في فلك ما يرد بهذه اللغة وحدها أي الفرنسية، من دون لغات العالم الأخرى المعروفة بالتقدم العلمي والتكنولوجي .

إن الاستقلال السياسي للأمة لا يستقر له أساس مع الزمن إذا لم يتعزز بالاستقلال اللغوي، لأنه لا حاضر لمن لا ماضي له؛ وماضي الأمم مخزون في الذاكرة الجماعية و الوجدان العام؛ و هذا المخزون لا يمكن أن نضمن له الحياة والتواصل عبر الأجيال إلا بالأداة التي صيغ بها أصلا، أي باللغة العربية، التي تبناها الجزائريون لغة العلم والحضارة منذ الفتح الإسلامي لهذه الربوع .

قلنا إن الجانب المخطط من ظاهرة العولمة يمتد في كل فراغ تعانيه المجتمعات المراد تجريدها من خصوصياتها الثقافية والحضارية التي تمثلها السيادة اللغوية في الأساس .

وإذن فإن الوضع اللغوي المضطرب يغري أهداف العولمة بالتحقق؛ ويشجع المخططين لها على العمل؛ ومن هذه الثغرات التي يستغلها أولئك المخططون الوضع اللغوي المتميز الذي أفرزه تنصيص الدستور الجزائري على أن البعد الثالث للشخصية الجزائرية، بعد الإسلام والعربية، هو البعد الأمازيغي، باعتبار هذا البعد جزءا لا ينفصل عن الشخصية الحضارية للجزائر، إذ هو رافد من روافد الثقافة الوطنية

التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ، و هو لذلك كله عنصر ثراء و غنى، وعامل من عوامل التماسك والوحدة لا عامل من عوامل التفكك والتفرق! .

ولكن هل هذا التصور النظري السليم هو الذي نجده في واقع حياتنا السياسية والثقافية والاجتماعية؟! أم أن شأن الأمازيغية هو نفسه شأن العربية ؛ كما تقدم، نعلن نظريا عن شيء ونرى في الواقع شيئا آخر ؟!.

إن الرصد الواعي لامتدادات هذه المسألة أي الأمازيغية في واقع حياتنا الوطنية ؛ سياسيا و ثقافيا و اجتماعيا، يكشف بأن هذا البعد الثالث لشخصيتنا الحضارية قد خرج عن إطاره الطبيعي، واكتسب أبعادا انحرفت به عن حقيقته؛ وأصبحت الأمازيغية عنصر فرقة وتشتت و ضعف وعامل اغتراب وانسلاخ من الذات، وذلك بسبب الأهداف المشبوهة التي يخطط لها بعض دعاتها؛ وبعض المتحدثين باسمها، و هم إذا ما اختلفوا في أساليبهم ومناهجهم فإنهم متفقون عموما في النية المبيتة للوصول إلى هذه الأهداف ويمكن أن نحصر بعض هؤلاء الدعاة في أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: يمثله دعاة جادون يسخرون لهذه المسألة تخصصات علمية في شتى فروع المعلوم والمعارف الانتروبولوجية والتاريخية واللغوية و ما إلى ذلك؛ ويوفرون من الجهد والوقت والمال ما تحتاجه مختلف الأنشطة الكثيفة المتنوعة المجالات، داخل الوطن وخارجه ؛ فيضعون الدراسات والأبحاث، و ينظمون المؤتمرات ويصدرون الكتب والمجلات .

هذا الصنف من الدعاة للأمازيغية هدفهم الجوهري الوحيد، والذي لا يعلنون عنه في الظاهر هو إبعاد أو فصل الأمازيغية عن البعدين الآخرين للشخصية الجزائرية «الإسلام والعربية» أو إبعادهما عنها؛ ويؤكد هذا المسعى ما يقومون به من أعمال متكاملة، تصب كلها في هذا الاتجاه ؛ وفي مقدمتها الجهود الكثيفة التي تبذل من أجل تجريد و تصفية الأمازيغية من كل الألفاظ العربية التي امتزجت بها منذ قرون .

ومن ذلك أيضا الرفض القاطع المحموم لكتابة الأمازيغية بالحروف العربية والتشبث بالحرف اللاتيني بحجة ضمان انفتاح هذه اللغة مستقبلا على حضارة البحر الأبيض المتوسط، أولا وعلى الغرب المتقدم ثانيا، وعلى العكس من ذلك، الحكم عليها بالجمود والموت إذا ارتبطت بالعربية بحكم الوضع الحضاري المتخلف للعرب.

في الحقيقة والواقع نجد أن الدعوة إلى الأمازيغية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفرنكفونية، ولا يمكن أن تنفصل عنها، والدليل على ذلك أن معظم المتحمسين لها، المؤمنين بها هم من ذوي التكوين بالفرنسية ويعبرون عن أفكارهم وأطروحاتهم بالفرنسية ويغلب عليهم التأثر الشديد بنمط العيش الفرنسي الغريب عن المجتمع الجزائري الأصيل.

الصنف الثاني: وهناك دعاة للأمازيغية ولا يملكون من أساليب الدعوة إلا العناد والعاطفة الجامحة و التعصب و الجهل و ضيق الأفق، فهؤلاء لا يملكون لا العلم و لا المال مثل الصنف الأول، لكنهم يتذرعون ببعث الأمازيغية وإحيائها ونشرها، و هم في قراره أنفسهم لا يؤمنون بها، لأن لغة حديثهم هي الفرنسية التي لا يتصورون عنها بديلا لأنهم لا يعرفون غيرها؛ و لا يتصورون مستقبل أبنائهم بغيرها ؛ فهؤلاء لا يعرفون الأمازيغية أصلا ولا يتحدثون بها في أوساط عائلاتهم مع أبنائهم ولا يهتمون بما تمثله من تراث أو قيم يميزها عم غيرها لأنهم يجهلونها؛ بل إنهم لا يؤمنون حتى بكونها بعدا أصيلا من أبعاد الشخصية الحضارية للجزائر، بعيدة عن فرنسا بعد السماء عن الأرض .

هؤلاء يصرحون ويعلنون بأن الفرنسية لها مكانتها في الجزائر، في الحاضر والمستقبل لأنها لغة اتصال وعلم و تكنولوجيا والذريعة التي يلجأ إليها هؤلاء لكي يموهوا هدفهم هو أنه لابد من وقت لكي تصبح فيه كل من الأمازيغية والعربية لغة علم و تكنولوجيا و إدارة، تصلح للحياة العملية؛ ومعنى هذا المنطق واضح، وهو التمكين للفرنسية كلغة علم واتصال بين الجزائريين، ما دامت الأمازيغية تتطلب سنين من أجل تطويرها وترقيتها، وما دامت العربية مهمشة، بعيدة عن مجال المنافسة الحقيقية للفرنسية ولو كانوا يؤمنون بالامازيغية حقا لخصصوا لها ولو ربع صفحة من صفحات جرائدهم الكثيرة الناطقة بالفرنسية .

والحقيقة أن هدف هؤلاء يذهب بعيدا حيث يرمي إلى تشتيت المجتمع الجزائري وضرب وحدته، باجتثاثه من أصوله وتاريخه وتراثه؛ والخطة واضحة، وهي الدعوة في الظاهر إلى إحياء الأمازيغية وتطويرها والتعليم بها، بينما يعلم هؤلاء أن في الجزائر ما يقارب عشر لهجات متفرعة عن الأمازيغية القديمة المندثرة، ومعنى ذلك استحالة تبني إحدى هذه اللهجات العشر كلغة علم وتربية وتكوين في مستوى الوطن؛ وهو ما يؤدي حتما إلى نتيجة وحيدة هي المخطط لها، ألا و هي بقاء الفرنسية وحدها، لغة التعليم والإدارة و الثقافة في الجزائر .

إن ارتباط الدعوة إلى الأمازيغية بالفرنكفونية يؤكده أكثر من دليل كما قلنا؛ ولكن هؤلاء الدعاة المتعصبين يرفضون المنطق والموضوعية والعلم، بل ويتنكرون حتى للتاريخ الأمازيغي الذي يدعون تقديسه والحرص على بعثه، من ذلك مثلا أن هذه الأمازيغية التي يريدون بعثها لم يتخذها حتى ماسنيسا وخلفاؤه لغة وطنية رسمية ؛ بل اللغة السائدة آنئذ هي اللاتينية واليونانية؛ والدليل أن المثقفين الأمازيغ لم يكتبوا بها بل كتبوا باللاتينية، مثل أبوليوس والقديس أو جسطين؛ وهذا الوضع اللغوي والثقافي هو الذي وجدته العربية عندما دخلت الجزائر خلال الفتح الإسلامي، فانحسر أمام نورها الساطع نفوذ اللاتينية والمسيحية؛ وعاشت في القلوب والضمائر والوجدان قبل أن تعيش في بطون المصنفات العلمية التي وضعها بها العلماء الأمازيغ الأحرار عبر الأجيال و العصور؛ فلم تشهد الجزائر في عهد من عهودها تنافرا أو خصاما ما بين العربية والأمازيغية بشتى فروعها .

الصنف الثالث: وهم أولئك الذين يعلنون إيمانهم بهذه المسألة ويرفعون شعارها ويبدون الاستعداد للإسهام في بعثها و تطويرها و هم في قراره أنفسهم يبطنون خلاف ما يعلنون ؛ فهم لا يؤمنون بها أصلا ولا يرون جدوى من الاهتمام بها والادعاء بأنها قادرة على أن تكون لغة علم وحضارة؛ لأن هؤلاء موقنون أن هذا كله ليس من الأولويات الملحة التي يمليها واقع الجزائر التي تحتاج إلى تعزيز وحدتها و تجنيد طاقات أبنائها والتضحية – إذا اقتضى الأمر حتى ببعض مقوماتها الأساسية – من أجل نهضتها وتقدمها.

والخلاصة أن تحصين اللغة العربية من ضغوط العولمة يبدأ أو لا بتشريح كامل للوضع القائم، كما هو لا كما ينبغي أن يكون، بمعنى أن يكون هذا التشريح شاملا لجميع العوامل الموضوعية التي ساهمت في صنع هذا الوضع اللغوي الشاذ، سواء منها التاريخية أم الاجتماعية أم السياسية أم الاقتصادية أم الحضارية؛ وبعد هذا التشخيص الشامل الدقيق يمكن وضع استراتيجية شاملة هي الأخرى لمواجهة كافة الضغوط أو الأخطار التي تستهدف هذه اللغة؛ لأن هذه الضغوط أو المخاطر أو التحديات تكون حينئذ «خارجية» مباشرة، واضحة؛ لكننا إذا لم نعقد مصالحة كاملة مع ذاتنا ومقومات هذه الذات، وما لم نجدد إيماننا بثوابتنا وعزمنا على التمسك بها، وما لم نوحد رؤيتنا لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا فإن وضعنا اللغوي سيظل مضطربا مهزوزا ومستقبل أجيالنا سيبقي غامضا ومفتوحا على كل الاحتمالات، وستظل مواقفنا من مخاطر العولمة وتقديراتنا لها متباينة بل متناقضة ؛ لأنها لن تكون وليدة رؤية تستند إلى مرجعية واحدة موحدة .